الزمكانية فی روایة "أعاصیر فی بلاد الشام"

حسن شوندی*
زهرا محمود اصفهانی**

تاریخ الوصول: ۱۳۹۰/۶/۲۲هـ ش
تاریخ القبول: ۱۳۹۰/۷/۱۰هـ ش

الملخص

قبضت الأدیبة السـورية ناديا خوسـت على جمر الإبـداع، ولوّنته بثقافتهـا بقدرة وطرفة. فوفّرت لقصصها حساسية فريدة جعلتها واحدة من المبدعات اللواتی يعتز اتّحاد الكتاب العرب بانتمائهن إليه. فناديا خوسـت تفوح بعطر بلاد الشام، فحناؤها ليس دمشقيا فقط.لعب المكان فی الرواية الفلسطينية دورا وظيفيا واضحا، وارتبطت بمراحل الصراع العربی الصهيونی. فنلاحظ وجود نمطين للمكان فی الرواية السـورية همـا: المكان المغلق والمكان المفتوح، ولكل منهما خصائص وميزات تعكس الطبيعة الفكرية والنفسية للشخصية التی تعيش فيها.

لقد وعی الروائيون الفلسـطينيون الأهمية الكبيرة للزمن. فهی تعود إلى الوراء لتسترجع أحداثـا تكون قد حصلت فی الماضی. أو على العكس من ذلک تقفز إلى الأمام لتستشـرف ما هـو آت، أو متوقّع مـن الأحداث.وفيما يلی يدرس البحث واقع الرواية، وأهم القضايا والمفاهيم والأفكار التی تناولوها بهذا الصدد، ومن ثم يخلص إلى دراسـة الرواية فنيا، فيقف على علاقتها بالمكونات الروائية: المكان والزمان.

الكلمات الدليلية: ناديا خوست، أعاصير فی بلاد الشام، الرواية، المكان، الزمان، فلسطين

*. أستاذ مساعد بجامعة آزاد الإسلامية فی كرج، إيران. Hsh50156@yahoo.com
**. طالبة مرحلة الماجستير بجامعة آزاد الإسلامية فی كرج، إيران.

المقدمة

ظهــرت على الســاحة الأدبية، بعض الأعمــال الروائية ذات الصبغــة الواقعية، فالكاتبــة نادية خوســت، مــن هؤلاء الأديبــات العربيات اللاتى وجهــت ثقافتها وموهبتهــا نحــو التاريخ العربى، ويمكن القول إنّ رواية "أعاصير فى بلاد الشــام" قصــة حقيقية، بحيث أظن بأن القارىء يرجع إلى كتب التاريخ ليتأكد من صحة الأحداث المسرودة فى النص.

ننتبــه قبل القراءة إلــى أن الأحداث التى نقرؤها هنا هــى أحداث حقيقية، لأن القــارئ قادر على الرجوع إلى الكتب التاريخية للتأكد من صحة المســرود. ولا شــكّ فى أن هدف ناديا خوســت ليس دفع القارئ إلى كتب التاريخ ليتأكد بنفســه مــن صحة الأحداث المســرودة، بل هدفه هو مجــرد الحصول على ثقة القارىء بصحةالمســرود.

تقع رواية "أعاصير فى بلاد الشام" فى حوالى٢٠٦ صفحات من الحجم الكبير، مقطــورة الفصول مــن دون عناوين، وهــى رواية فى جملتها العامة مســتلّة من الوثائــق، والمذكرات، وأخبار الحرب، والرواة، الحقيقيين الذين عاشــوا فى القرى والمدن الفلســطينية.ففى هذه الرواية تسجل المؤامرات والهزائم، والأذى، والبكاء، والأحــزان، والتغنــى بما كان، والأمكنة، وطقــوس الليل، والنهــار، والندم... كلها توصيفات شديدة الحضور فى الرواية.

هذه الرواية مشــطورة إلى شــطرين كبيرين أولهما: فإنّه يسجل وقائع العجز العربى بفعل سقوط القرى والمدن الفلسطينية قرية بعد قرية، ومدينة بعد مدينة أخرى، والثانى: فهو يســجل حركة الفعل الصهيونــى الذى لم يعرف اليأس تجاه الاحتلال المزيد من القرى والمدن الفلسطينية.

والروايــة مهمومة بما حــدث فى قرية "صفورية" الجليلة من إشــعال الحرب وطقوســها كأنموذج لكل ما حدث فى الجليل الأعلــى، والحدث فى الرواية أكبر عمــا حدث فــى صفورية التى عاش فيهــا قيس، صفورية الملاعــب، والمدارس، والكنائــس، والفوانيس، صفورية والحرب، ثمّ الفاجعــة، والعودة الرية والحرب، ثمّ الفاجعة، والعودة إلى صفورية فى الفجر وفى رجوعه الأخير يمشــى على بســاط الأحزاب. فيتهم بالإلحاد، ويســجن مرات عديدة، وأخيــراً تختتم الرواية فصولها.

وفیمـا یلی یدرس البحث واقـع الروایة، فیقف علی علاقتهـا بالمکونات الروائیة: المکان والزمان. یشکّل کلّ من المکان والزمان الروائیین أحد المکونات الأساسیة فی بناء الروایة. فهما یدخلان فی علاقات متعدّدة مع المکونات الحکائیة الأخری للسـرد، کالشخصیات والأحداث والرؤیات السـردیة. ویوصف المکان الروائی عادة - وهـو مکان محدد فی کثیرٍ من الأحیان- بأنّه مسـرح الأحداث، أو الحیّز الذی تتحرّک فیه الشخصیات، أو تقیم فیه، فتنشأ بذلک علاقة متبادلة، بین الشخصیة والمـکان، وهی علاقة ضروریة، لتمنح العمل الروائی خصوصیته، وطابعه، ومن ثمّ لیکتسب المکان صفاته ومعناه ودلالته.

أمّـا الزمان الروائی، فهو یتجلی فی عناصر الروایـة کافّة، وتظهر آثاره واضحة، علـی ملامح الشـخصیات وطبائعها وسـلوکها، فالأحداث التی یسـردها الکاتب، والشخصیات الروائیة التی یجسدها، کلُّها تتحرّک فی زمن محدّد یُقاس بالساعات وبالأیام والشـهور والسـنین. وهذا یعنی أنّه زمن تصاعدی. إذ یفترض أنْ یجری عرض الأحداث وفق تسلسلها الزمنی المنطقی الطبیعی. (بحراوی، ۱۹۹۰م: ۲۶)

علـی أنّ اسـتجابة الروایة لهذا التتابـع الطبیعی فی عرض الأحـداث، حالة افتراضیـة أکثر مما هی واقعیة، لأن تلک المتوالیات الحکائیة، قد تبتعد کثیراً أو قلیلاً عن المجری الخطّی للسرد، فهی تعود إلی الوراء لتسترجع أحداثاً تکون قد حصلـت فی الماضی. أو علی العکس من ذلک تقفز إلی الأمام لتستشـرف ما هو آت، أو متوقّـع من الأحداث. وفی کلتا الحالتین نکـون إزاء مفارقة زمنیة، توقف استرسـال الحکی المتنامی، وتفسـح المجال أمام نوع مـن الذهاب والإیاب علی محور السـرد، انطلاقاً من النقطة التی وصلتها القصّة.وهکذا فتارة نکون إزاء سرد استذکاری... وتارة أخری نکون إزاء سرد استشرافی. (المصدر نفسه: ۱۱۹)

لعـب المکان فی الروایة الفلسـطینیة دوراً وظیفیاً واضحاً لدی معظم الکتاب. أمثال غسـان کنفانی، وإمیل حبیبی، وجبرا إبراهیم جبرا. وشـغل حیزا بارزا فی روایاتهـم، وفی تفکیر العدید من الشـخصیات الروائیـة واهتمامها. واتخذ معانی ودلالات ورمـوزاً متنوعـة، ارتبطت بمراحـل الصراع العربـی الصهیونی، والزمن الفلسـطینی فـی صعوده وهبوطه. (المصدر نفسـه: ۳۰) علـی الرغم من صعوبة الفصل بین المکان والزمان، سـنحاول دراسـة کل منهما علی حدة. وهنا یمکن

الوقوف علـــى بعض الأمثلة التى تظهر العلاقة التبادلية بين المكان والشـــخصية، وبنائه فنياً.

ملخّص الرواية

تســـتند هذه الرواية إلى شهادات شـــخصية، وإلى موسوعات ووثائق ومذكرات وكتب تاريخية. تبدأ رواية "أعاصير فى بلاد الشام" من النهاية التى عاد فيها قيس إلى إربد بعدما طوّح فى الدنيا عشرات السنين، وبعد أن تطوّح الاتحاد السوفييتى وكواكبه. وبالطبع، لن تكون الرواية بعد مثل هذه البداية، ســـوى اســـتعادة لحياة بطلها، وإن يكن حضور النهاية ســـيمثل بين حين وحين أثناء الاستعادة. ينتمى قيس إلى قرية صفورية الفلسطينية التى أبادها الصهاينة فى الحرب التى أسفرت عن قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م. وإذا كانت الرواية فى أولى فقرات البداية ستجيبه بتلك الإبادة، فهى ستجيبه أيضاً بذكرى غزالة وأغانى أسمهان. ثم تنهمر مما آل إليه قيس بعد أربعين سنة فهو أخلاط من فرادته منذ نشأته، وحسبنا من ذلك نبوءته بخراب المعسكر الاشتراكى: هل كان له حدس الأنبياء وبصيرة المنجمين يـــوم قال: ما بدأ به الثوار نســـيه السياســـيون؟ ومن تلك الأخـــلاط مصادفته فى مطار فيينا إبان عودته الأخيرة الغجرية التى ستستدعى ذكرى غجرية طبريا من اليفاعة أيضاً. ومثل هذه الذكرى هى المعلومات عن زواج قيس وعن المسافة بينه وبين ابنه وعن كتابته الشـــعر ودراسته الفلسفة واستقباله فى بيته للسفراء وقادة السياســـيين وولعه بالنســـاء بحثاً عن ليلاه، وصداقته مع جـــورج ماكاى اليهودى الذى كان مستشارا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى. ويصفه الصهاينة بخائن الشعب اليهودى لأنه يخالفهم.

ولد قيس فى قرية تبعد عن الناصرة ســـبعة كيلومترات، اسمها صفورية. كان أبو قيس تاجر أغنام، يســـتوردها من الشـــام ومن تركيا. عاش قيس فى صفورية حتى الســـنة التى سماها العرب "سنة النكبة". فى ليلة ١٥ تموز ١٩٤٨م قصفتها ثلاث طائرات إسرائيلية.

بـــدأت الرواية منذ البداية فى التوثيق لعراقـــة صفورية، ثم فى الغمر الذى تلا عن قبة الصخرة وتغلغل اليهودى الصهيونى فى الأحزاب الشـــيوعية، وتروتســـكى

وإيخمان والبهائية وجيش الإنقاذ وتقسيم فلسطين وتسليح اليهود والصراع فى الأردن خلال خمسينيات القرن الماضى...

هكذا صورت الرواية توالى المناوشات فى صفورية أو صفد نذيراً بالحرب، ثم توالى سقوط المدن والقرى وقدوم جيش الإنقاذ وفيه من الضباط السوريين أديب الشيشكلى وإحسان كم ألماظ وغسان جديد وسارى الفنيش الذى انسحب بجنوده فجأة تنفيذاً للأوامر، كما سيجلو السبب لقيس حين يلقاه فى إربد بعد أوبته الأخيرة إليها. وقد رسمت الرواية ببراعة مشاهد عديدة فى هذه التأرخة للحرب، من أبرزها ما جاء عبر القصة الفرعية لبهاء سواء فى القتل أو النزوح، وفى لبنان أو فى الصفصاف أو فى القدس أو على الحدود اللبنانية. توسلت الرواية أيضاً المذكرات: الدفتر المدرسى لأميرة التى سجلت فيه وقائع سقوط صفد كما سجل بهاء فى مفكرته ما تعلق بجيش الإنقاذ أو بالمعارك التى خاضها، فضلاً عما كان يحكيه لزوجته كلما عاد من معركة.

وقد آثرت الرواية غالباً أن تنتهى من كلّ قصة "فرعية" لمعركة قبل أن تنتقل إلى أخرى، وهو ما سيتكرر أيضاً بصدد حياة قيس والشخصيات الأخرى، حيث ندر أن لجأت الرواية إلى التقطيع كما كان بصدد صفورية، وذلك باستكمال حكاية الحرب فيها حين حاول قيس العودة إليها بعد النزوح.

لقد حرصت الرواية على المستوى الآخر المتعلق بحياة قيس وأسرته ومن له به صلة، على فرادة بطلها "ستزيده المصادفات إيماناً ببصيرته وبأن ما يراه فى نومه أو يتصوره يقع". وكما كان الشعر مجلى لتلك الفرادة، كانت الأنثى، من غزالة ونجيبة فى يفاعة قيس، إلى شهرزاد والمعلمة لور والبهائيات وإلهام... وابتداءً وانتهاءً بليلى التى دأبت الرواية منذ البداية على أن تكون رمزاً يُلْمِعُ بصبوة قيس، فى استعادة لقصة العشق التراثية بين قيس وليلى.

وقد بلغ هذا الترميز فى النهاية مبلغ الفجاجة حين التقى قيس مصادفة ليلى الطالبة فى جامعة دمشق، وتوالت العبارات التى تختم الرواية: سيضع قيس فيما بعد صورتها فى جيبه، وهو يعبر منظمات ممزقة، وبلادا تهيء انهيارها، ويغطس منتقما من نفسه ومنها ومن الواقع الذى ترنح، وسيتخيل أنه يحمى نفسه من كل ذلك بالحلم بها.

المكان فی الروایة

لعــب المكان فی الروایة الفلســطینیة دوراً وظیفیاً واضحــاً، ارتبطت بمراحل الصراع العربی الصهیونی، نلاحظ وجود نمطین للمكان فی الروایة الســوریة هما: المكان المغلق والمكان المفتــوح، ولكل منهما خصائص ومیزات تعكس الطبیعة الفكریة والنفسیة للشخصیة التی تعیش فیه، یكثر حضور الشخصیات المثقفة فی الأماكــن المغلقة كالمقهی والبیت والبار...، أو الأماكن المنعزلة كالغابات والجبال، مما یعكس انغلاق الأفق أمام الشــخصیة المثقفة مــن جهة، وعزلتها عن الناس، وعجزها عن القیام بالدور المنوط بها، وهو تغییر الحیاة إلی الأفضل والأجمل من جهــة أخری. (بحــراوی، ۱۹۹۰م: ۴۳) فإننا نتوقف هنا فی ســلطة المكان حول ثنائیة المكان المغلق والمكان المفتوح.

المكان المغلق

أمــا روایــة نادیة خوســت "أعاصیر فی بلاد الشــام" فتحتوی علــی مكانین متناقضین، هما المكان المعزول، والمكان المفتوح، وقد وظّفت "نادیة خوســت" هذین النوعین من الأمكنة لتكشــف من خلالهما عن الطبیعة الفكریة والنفســیة لشخصیات روایته.

فقد اختارت المؤلفة المقهی ماریا للشخصیة "قیس" النامیة فی روایته لثلاثة مــن عمره لتمارس فیه العطالــة وتزجیة الوقت، بعد أن وضعها الواقع المؤلم علی هامش الحیاة. فهو یعود إلی الوراء لتسترجع أحداثاً تكون قد حصلت فی الماضی. أو علی العكس من ذلک تقفز إلی الأمام لتستشــرف ما هو آت، كان قیس یحب ذلــک المقهی. كمایقــول الراوی: «ذلک المقهی المزین بصــور الفنانین والكتاب الذین جلسوا فیه، وجمع المرایا والثریات فی الطابق العلوی، إلی المقاعد الخشبیة فی الطابق الأول. كان یجلس فیه كل یوم ولو قلیلا.» (خوست، ۱۹۹۸م: ۷)

إن المقهی وهو أهــم الأماكن التی تتواجد فیها أصحابه وأعداءه و هو المكان المفضل للشــخصیات فی روایة "أعاصیر فی بلاد الشــام"، وكم مرّات التقی قیس فی هناک بطوران روبرت زمیله فی قســم الفلسفة ! كان طوران یقصده كلما رآه فی مقهی نرســیس، هو یهــودی، فقد كان فی الصف عشــرون طالبا من الیهود

وطالــب واحد غير يهودى كانوا يســتعينون بقيس فى الــدروس. وأيضاً المقهى هو أهم المكان الذى قدم فيه نادية خوســت شــخصيات مثقفة انعزلوا من الواقع والناس، وعجزت عن ممارســة دورها فى تغيير المجتمع، وانصرفت إلى شــؤونها الذاتية والحلول الفردية.

لقد تبنت هذه الشــخصيات مفهومــاً للثورة يقضى بهــدم العلاقات القديمة، والاســتعاضة عنها بعلاقــات جديدة.كما يقول الراوى: «مــر بمقهى فيكتور الذى إنحاز ضد تيتو ذات يوم وهرب من يوغوسلافيا. وكان مختصا فى الشؤون العربية. ويســر له قيس الســفر إلى لبنان والأرض المحتلة مرات. زار إسرائيل وكتب عن العرب. وضع فيكتور الرســائل التى وصلته على الطاولة الصغيرة أمام قيس وقالت: اقرأ: أتى اليوم الذى ســتعلق فيه على المشــنقة أيها الفاشــى عدو الســاميين»! يهددوننى أيضا بالهاتف!» (المصدر السابق: ٨)

قــال قيس عقايده الاشــتراكية لأبناء بلــده فى المقهى: «أمّنت الاشــتراكية للإنسان العلم والمســكن والصحة والراحة والثقافة فالبلاد العربية والفلسطينيون سيخسرون سندهم العالمى إذا سقط المعسكر الاشتراكى!» (المصدر نفسه: ١٠)

أجمع نقاد الروايــة الجديدة على أن للمكان دورا كبيرا فى تحديد الخصائص الفكرية والنفســية للشــخصية، وأكدوا العلاقة المتبادلة بين المكان والشخصية، وذهبــوا إلى أن وظيفة المكان هى إلقاء المزيد من الضوء على الشــخصية، بغية الكشــف عن عالمها الفكرى والنفسى: «إن بيت الإنسان امتداد لنفسه، إذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان.» (محيى الدين، لاتا: ٢٣١)

وصف المكان المغلق يتســم بالتركيز على الأشياء المبصَرَة فى بيت "قيس", لأن الأشــياء المبصــرة واضحة دائما، بــل إن جزئيّاتها محــدَّدة. وإذا كان تقديم الأمكنة فى الرواية يأتى مرتبطاً بتقديم الشخصيّات، مساعدتنا على فهم الشخصية ومستوى تفكيره، وطبيعة سلوكه.لنقرأ ما جاء على لسان الراوى:

«قيس وحده فى البيت الذى اســتقبل فيه سفراء، وقادة سياسيين، ولاجئين سياسيين، ومنفيين، وأصدقاء منهم كارلوس وزوجته ليلى وصديقه ستيف. رتب ثيابه فى حقيبة. على الرفوف الكتب التى انتقاها، حوله الكراسى والطاولة الخيزران الخضراء التى يحبها، "الفازات" التى اختارها من مخازن المعروضات القديمة، فى

الخزانة الكؤوس الكريستال المحفورة التى كان يستمتع بالشراب بها! أشياء تجسد العمر الطائر فى مادة تلمس وترى! يتركها!» (خوست، ١٩٩٨م: ١٤-١٣)

المكان المفتوح

وأرض فلسطين أرض مباركة على حسب نص القرآن الكريم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء: ١)

الحقيقة أنَّ الكلام عن بلاد الشام طويل جداً، لكننا نلقى شيئاً موجزاً عن أهميّة بلاد الشام؛ لأنه موضوع قوى، و مهمّ غاية، ومسلسلاته مؤثرة جداً فى المستقبل الإسلامى.أما النمط الآخر فهو المكان المفتوح والمتسع الذى عرفنا عليه نادية خوست من خلال حديث "الراوى" عن بلاد الشام، وخاصة سقوط القرى والمدن الفلسطينية. وقد بدا هذا النمط من الأمكنة ذا أفق واسع وممتد. وكان مسرح الأحداث للروائية نادية خوست يجرى على أرض فلسطين، سنة ١٩٤٨م، بمدنها وقراها وشوارعها وأحيائها وبيوتها.

يقول الراوى بلسان ألفريد ليلنتال فى كتابه "ثمن إسرائيل" لقيس «فى ٢٩ تشرين الثانى ١٩٤٧م صوتت هيئة الأمم على تقسيم فلسطين بين دولتين عربية ويهودية وإدارة دولية فى القدس، بأغلبية ٣٣ صوتا ضد ١٣صوتا.» (خوست، ١٩٩٨م: ٥٧)

واقعة اتفاقية سايكس بيكو وتجزئه بلاد الشام، وضعت المؤلفة فى الصورة التحولية التى جرت لمجتمع بلاد الشام، فأسرة الرواية تجزأت كما تجزأت البلاد وأصبحنا نسمع لأول مرة، هذا سورى وهذا فلسطينى وهذا لبنانى وهذا أردنى...

وهذا يقودنا إلى موضوع المكان، فالأحداث تبقى دائماً فى حركة متنقلة مابين صفد وصفورية وطبريا وعكا ودمشق وأربد، وهذا التحرك فى هذه الأمكنة له التأكيد على وحدة بلاد الشام.أنا أعتقد أن المؤلفة آثرت التحرك فى حلم قريب من الواقع، لا سيما أن بلاد الشام كانت فى تلك الفترة تعيش حالة وحدوية من الناحيتين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. بعد هذا القرار بدأت الاشتباكات فى بلاد الشام.كان الحى اليهودى يقطع طرقات صفد إلى قرى فلسطين ولبنان. كما يقول الراوى: «لاطريق إلى صفد إلا وادى الطواحين الذى لايسلكه إلا المشاة

والبغال.» (المصدر نفسه: ۶۱)

تتعدّد الأمكنة التی تتنقل الاشخاص فيما بينها فی الرواية، يكون ذلک مترافقاً مــع تطور حركة الأحداث، ومــن الطبيعی أن يتبع هذا التنقل تنوع فی الدلالات المكانيــة تبعاً لتنوع تلک الأحداث. وهذا ما نقف عليه فی رواية "أعاصير فی بلاد الشــام". احتلال القرى والمدن الفلســطينية قرية بعد قرية والمدينة بعد المدينة الأخرى عن القرية سعســع وعين الزيتــون وصفصاف والمدينة صفد واللد والرينة ثم تنتقل من الأردن إلى لبنان.

ربطــت المؤلفة فــی كل النص هذه الأجيــال بأرضها، وغرســت حب الوطن والأرض فــی وجدانها وفكرها، وجعلتها أشــد انتماء للوطن. شــرحت المؤلفة فی روايته هذا الواقع والأحزان والأذى بما كان على ســبيل المثال: فی قرية السعسع و عين الزيتون وصفصاف.

مجزرة قرية السعسع

هاجمت قوة من كتيبة "بالماخ" الثالثة التابعة لل"هجاناه" فی ۱۹۴۸/۲/۱۴م، قرية سعســع فی أقصی شــمال فلســطين، ودمرت عشــرين منزلاً فوق رؤوس أصحابهــا، بالرغم من أن أهل القرية قد رفعوا الأعلام البيضاء، وكانت حصيلة هذه المجزرة، استشــهاد حوالی ۶۰ من أهالی القرية، معظمهم من النســاء والأطفال. (مركز المعلومات الوطنی الفلسطينی، ۲۰۱۱م: موقع وفا)

«نســف البالماخ جســور شــرق المطلة، والجسر إلى عديســة، والجسر قرب سعســع وجســر الدان وجسر الحاصبانی وجسر شيخ حســين. وهجم على قرية سعســع قرب عين الزيتون. سعســع قرية مكشــوفة، بيوت متفرقة على منحدر، غير محصنة ولا محروســة، نسف البالماخ عشــرين بيتا فيها وقتلت ماتيسر من أهلها.» (خوســت، ۱۹۹۸م: ۶۴)

مجزرة قرية عين الزيتون

هاجمــت العصابات الصهيونية فــی ۱۹۴۸/۵/۴م، قرية عين الزيتون فی قضاء صفــد، وتروى اليهودية نتيبا بن يهودا فی كتابها "خلف التشــويهات" عن مجزرة عين الزيتون. فتقول: «فی ۳ أو ۴ أيار ۱۹۴۸ أعدم حوالی ۷۰ أسيرا عربيا مقيدا.»

(مركز المعلومات الوطنى الفلسطينى، ٢٠١١م: موقع وفا)

«جمع اليهود شـباب عين الزيتون، قيدوا الواحد إلـى الآخر بالحبال. جمعوا النسـاء عند العين وهددوهن بالقتل إذا تحركن. فتشـوا البيوت. التقطوا من بقى فيها. أخذوا الشباب وقتلوهم عند جبل كنعان بين صفد وعين الزيتون. بعد قتلهم أمر موشـيه كيلمان بأن تفك قيودهم ليخفى أنهم قتلوا بأمر هادئ! وصلت إلى صفد من عين الزيتون طول الليل أصوات الاسـتغاثة وعويل النساء. بعد المجزرة فى عين الزيتون أطلق اليهود النساء من مكانهن عند النبع: ابتعدن كيلا نقتلكن!» (خوست، ١٩٩٨م: ۶۴)

مجزرة قرية الصفصاف

الصفصـاف قريـة عربية فلسـطينية، تقع فـى قضاء صفد. دخلـت العصابات الصهيونية إلى القرية فى ١٩۴٨/١٢/٣٠م، وأخذت ۵٢ رجلاً من أهلها، ثم أطلقت عليهم النار، فاستشهد منهم عشرة. وعلى الرغم من مناشدة النساء وطلب الرحمة، إلا أن الإجابـة جاءت بثلاث حوادث اغتصـاب، وقتل أربع فتيات أخريات. (مركز المعلومات الوطنى الفلسطينى، ٢٠١١م: موقع وفا)

«سـقطت قرية الصفصاف فى الشـهر العاشر. قاومت طول الليل. ردت وجبات من المهاجمين اليهود. فى الصباح انسـحب المسـلحون منهـا إلى لبنان. لكنها لم تسـقط إلا بعد هجوم الطائرات الإسـرائيلية فى ٢٨ تشرين الأول ومقتل أكثر السـرية العربية المدافعة عنها. بقى فى القرية الأولاد والنسـاء والشيوخ، والقتلى السوريون والفلسطينيون. سقطت الصفصاف.» (خوست، ١٩٩٨م: ٨٠)

تتابع بعض المقاطع الوصفية لفضاء المكان المخيم، ومايشمله من أماكن فرعية، كوصف مركز البوليس، وبيوت منها بيت قيس مشهور ب"المنزل" والقلعة صفد.

«ماتزال مواقع العرب فى صفد قوية. لهم مركز البوليس، "تيغرت" صفد، البناء ذو الموقع السـتراتيجى على جبل كنعان شـرقا خارج المدينة. و"المنزل" الذى كان لسـكن الطلاب الغرباء واحتله سارى الفنيش وكتيبته. والقلعة المرتفعة التى تتوسط البلد وتطل عليها كلها، وحولها أشجار الصنوبر وفيها بئر تكفى البلد كلها، وتحيط بها فنادق سـياحية عربية ويهودية. فى يد العرب الأبنية الستراتيجية فى

صفد: فندق رزق، بناية صالح عبد الغنى، بناية فؤاد الخولى!» (المصدر نفسه: ٧٧)

وننتهى إلى القول، بأنّ للمكان أهمية كبرى فى الكشف عن الكثير من الوقائع التــى تقيم فيــه. لأنّ هناك تأثيرا متبادلا بين الطرفيــن اليهود والعرب فى بلاد الشــام. وهذا يعنى أن ظهور الشــخصيات، ونمو الأحداث التى تساهم فيها، هو ما يساعد على تشكيل البناء المكانى فى النص.

الزمان فى الرواية

«من العســير تعريف الزمان فهو من المفاهيم التى يعرفها الإنســان بالبداهة، ويصعب عليه تحديدها. وتعرفه موســوعة كولومبيا الأمريكية بأنه ترتيب متعاقب لكل الأحداث أو الفاصل بين حدثين فى هذه السلسلة المتعاقبة.» (خمّار: لاتا)

لقد وعى الروائيون الفلســطينيون الأهمية الكبيــرة للزمن، ولدوره فى العمل الروائــى، وفى بناء الشــخصية الروائية، وتأثيره فى حياتهــا، وفى حركة الأحداث. فانطلقوا فــى تعاملهم معه من خصوصيــة الواقع الفلســطينى الحافل بالأحداث والتطورات والتحولات، فجسدوا ذلک برؤية فنية تتسم بالصدق والواقعية.

وحرصوا على تحديد الزمن الخارجى للحدث الروائى الذى يُراد تجســيده فى رواياتهم أو اتخاذه إطارا لها، لارتباطه الوثيق بالزمن التاريخى للقضية. هذا، الزمن الذى يمثّل المقابل الخارجى الذى يسقطون عليه عالمهم التخييل.

واستعملوا فى تحديد الزمن المقاييس الموضوعية المعروفة، كالسنة والشهر واليوم والســاعة والصباح والمساء... وكثيراً ما حرصوا على وضع علامات، أو قرائن تشير إلى تواريخ محددة، أو أحداث معروفة، ســواء فى بداية الرواية، أو فى ســياقها، لتدل على بداية الحدث الروائى وزمنه التاريخى بوضوح. (سمر روحى، ١٩٩٥م: ١٨٠)

الزمن النفسى فى الرواية

يلعب الزمن فى الرواية دورا هاما وأساســيا، فهو يمثّل الشــخصية الرئيســية «قيس»، وتشير إليه أداته، ساعة الحائط التى ترصد دقاتها الرتيبة القاسية، حياة أولئک الذين يعيشون، فى عام النكبة.

فالزمن التاريخى بالنســبة للشــخصية "قيس" وحبيباته، غزالة، أميرة، وليلى واحد.علــى حين نجد الزمن النفســى ليس كذلک، كما نقــول فى الفصل الثانى:

«الزمن النفسی، ویسمّی أیضا الزمن الداخلی أو الشخصی أو الذاتی. وهذا الزمن یرتبط بالشخصیات ارتباطا وثیقا، ویدخل فی نسیج حیاتها الداخلیة، ویتلوّن بتلوّن حالتها النفسیة والشعوریة، فیطول أو یقصر تبعا لتلک الحالة.» (سیزا، ۱۹۸۴م: ۴۵-۴۴)

إلا إذ یبلغ الإحساس بالزمن الثقیل ذروته لدی "قیس". فتتحوّل دقات الساعة فی حالة الضیاع والقلق والانتظار الممض فی بدایة الروایة. لأن المعسکر الاشتراکی قد ألغی وشعر أیضا بأنه غریب حتی فی بیته وخسر ما أنفق علیه عمره! کما یقول الراوی: «وصل فی الزمن الذی کان الیساریون فیه لایزالون یفسرون الانقلاب العالمی کأنه إصلاحات ضروریة، ویشعر القومیون والمؤسسات الرسمیة فیه بأن کارثة نزلت بالدنیا، أفقدتهم سندا یتکئون علیه ولولم یحبوا طرازه.» (خوست، ۱۹۹۸م: ۶)

هکذا تجّسد "قیس" هذا الإحساس العمیق والحاد بمرور الزمن، فیتضح بذلک الدور الذی یؤدیه الزمن فی حیاة هذه الشخصیة. فالروایة هی روایة الزمن الفلسطینی الناهض الذی تعیش "قیس". وهذا الزمن أنعش روحه المعذب بعد نصف قرن من خروجه من صفوریة. دلّت علی ذلک الجمل: «فی ذلک الغروب، شعر وهو یحط فی مطار فیینا بأنه آمن وحر.» (المصدر نفسه: ۱۴)

الزمن الطبیعی فی الروایة

الزمن الطبیعی خاصیة موضوعیة من خواص الطبیعة، ولهذه الخاصیة جانبان هما: الزمن التاریخی والزمن الکونی وللزمن الطبیعی أیضا ارتباط وثیق بالتاریخ، حیث أن التاریخ یمثل إسقاطا للخبرة البشریة علی خط الزمن الطبیعی. وهو یمثل الذاکرة البشریة: یختزن خبراتها مدونة فی نص له استقلاله عن عالم الروایة. و یستطیع الروائی أن یغترف منه کلما أراد أن یستخدم خیوطه فی عمله الفنی. واهتم الواقعیون اهتماما خاصا بالزمن التاریخی الذی یمثل المقابل الخارجی الذی یسقطون علیه عالمهم التخیلی. وقد أکد الناقد "أیان وات" أن هذه الخاصیة من أهم الملامح المیزة للروایة الواقعیة فی القرن التاسع عشر، وتمثل فی إسقاط حیاة خاصة لشخصیة تخییلیة علی خلفیة من الخبرة العامة

الحقیقیة وهی التاریخ. (سیزا، ۱۹۸۴م: ۶۶)

تحصر نادیا خوست روایتها فی الوقت الذی سبق احتلال فلسطین بأشهر قلیلة، وماحدث بعد الاحتلال بوقت قصیر أیضا. علی الرغم من أن الزمن الفیزیائی للروایة واسع جدا یمتّد من فترة احتلال الیهود لفلسطین إلی وقت إنهیار الاتحاد السوفییتی فی التسعینیات هذا القرن. فعل نادیة خوست فی "أعاصیر فی بلاد الشام". وقد یشیر إلی ذلک بصورة دقیقة، فیبث بعض المعلومات أو الإشارات الزمنیة فی سیاق الروایة، وتفهم القارئ زمن الأحداث خاصة حرب النکبة سنة ۱۹۴۸م. ربطت المؤلفة "نادیة خوست" الأجیال الفلسطینیة بتراثها الشعبی، وبماضیها وتاریخها المجید، وبأرضها ووطنها، عقب النکبة عام ۱۹۴۸م، وأهم من ذلک کلها ربطت هذه الأجیال بأرضها، وغرست حب الوطن والأرض فی وجدانها وفکرها، وجعلتها أشد انتماء للوطن.

تبدأ المؤلفة زمن الأحداث فی هذه الروایة بعد قرار التقسیم الذی اقترحته لجنة الأمم المتحدة فی ۲۹ تشرین الثانی ۱۹۴۷م. و«فی ۱۹۴۸/۲/۷ اجتمع مجلس الجامعة العربیة وفحص تقریر اللجنة العسکریة عن الوضع فی فلسطین بعد قرار التقسیم»، و«فی لیلة ۱۵ تموز ۱۹۴۸م قصفتها ثلاث طائرات إسرائیلیة. ووصلت فی اللیلة نفسها إلی محیطها فرقة شیفا وفصیلا مدفعیة تسللت خمسة عشر کیلومترا فی أرض عربیة عند الفجر احتلت صفوریة قدمة للهجوم علی الناصرة فی "عملیة دیکل". هاجر بعض سکانها إلی سوریا. وطرد من بقی فیها فی أیلول ۱۹۴۸م. ووضع فی کانون الثانی ۱۹۴۹م من عاد إلیها متسللا فی سیارات وأجلی إلی الرینة وکفر کنا.» (خوست، ۱۹۹۸م: ۲۳)

حرکتا الزمن السردی

الاسترجاع

وقد استخدم الروائیون طریقتین للعودة إلی الماضی: الأولی تم فیها استرجاع الماضی عن طریق الشخصیة نفسها، وباستخدام ضمیر المتکلم، وأما الثانیة فتحققت فیها العودة إلی الماضی عن طریق الراوی الذی یستخدم فی هذه الحال ضمیر الغائب لإطلاعنا علی ماضی الشخصیات. (میثال، ۱۹۸۲م: ۹۸)

فی روایة "أعاصیر فی بلاد الشام" تکثر المقاطع الاسترجاعیة التی تتداخل

فيها الذكريات لبعض الشخصيات الروائية مثل: قيس، بهاء، منوّر، أميرة... إذ يلجأ "قيس" للاسترجاع ليوضّح بعض الجوانب أو القضايا الغامضة.

لجأت ناديا خوست بتخصيص حيّز هام من الرواية لاستحضار ذكريات الماضى القريب والبعيد، لكل من "قيس وبهاء"، ليضيء عالميهما، ولا سيما عالم "قيس". فركّــزت الرواية على ماضيها قبل عــام النكبة ١٩٤٨م، وبعدها أيضا بالوطن الذى تهفو إليه. توسلت الرواية أيضا المذكرات: شجرة التوت فى كرم ابن عم أبيه وغزالة على الشــجرة. سألته غزالة: «أرمى لک التوت؟ فنشر ذراعيه. فضحكت. فهمت أنه يريد أن ترمى نفســها عليه. نادته: أنت اصعد! من يرى الآن، غزالة أم هذه الفتاة التى لايعرفها؟ أين أنت الآن يا غزالة ؟» (خوست، ١٩٩٨م: ١١٣)

والدفتــر المدرســى للأميرة التى ســجلت فيه وقائع ســقوط صفد كما يقول الراوى: «سجلت أميرة على دفتر المدرسة أحداث صفد. لمن؟ طبعا، لقيس الذى ســتلتقى به عندما تنتهى الحرب, ويعود إلى مدرســته فــى صفد! طبعا له! كيلا يفوته يوم غاب عنه!» (المصدر نفسه: ٧١)

وأيضا حكاية صفورية المنسوفة حين حاول قيس العودة إليها بعد النزوح «مايزال العمود القديم مكانه قرب النبع! مايزال بناء عين صفورية الذى أنشأته البلدية مكانه فى وســط البلد قرب الشارع الرئيسى الذى يعبر القرية على "رأس البيادر" مايزال الماء يجرى إليه من القســطل! ماتزال الحنفيات التى يســتقى منها أهل صفورية موجودة، قربها مستودع ضخم ومكان تشرب منه المواشى والخيل! ولكن أين أهل القرية؟ أين النساء الراجعات من العين؟» (المصدر نفسه: ١٢٦-١٢٥)

وعرضت ناديا خوســت ســيرة حياة "قيس". أســهم أيضا فى فهم علاقاته مع حبيباتــه فى ذاكراته. «يــوم عاد إلى لبنان بعد عقود من الزمن ســأل عن غزالة التى كان يلتقى بها فى الكرم ويراها من شــرفته قادمة من العين ويسمعها أغنية أســمهان.» «ويوم رجع إلى بلده استبعد البحث عن نجيبة، كى يستبقى نجيبة القديمة التى كان يلقاها فى حقول القمح. هى التى طلبت أن تراه فأرسلت زوجها إليه.» (المصدر نفسه: ١٢٢-١٢١)

تكشف رواية "نادية خوست" عن شخصية "منوّر" و تفسر الكاتبة هذه التحولات الكبيرة فى شخصيتها، فلجأت إلى استرجاع تلك المرحلة الصعبة من حياتها التى

أعقبت استشهاد زوجها "بهاء"، ویقارنه مع استشهاد یوسف فی حیفا.

«هــل تکرر منور أمهــا فاطمة التی منعت البکاء فی مأتم زوجها یوســف فی حیفــا؟ حقدت علیها منور یومذاک لأنها لم تبک زوجها! ولم تنحن حتی الأرض أمــام الحزن علی العزیز! الآن فقــط تفهمها. بعد عقود من الســنوات تفهمینها؟ لاتحتــاج فاطمة أن تفهمیهــا الیوم یامنور! لأنها منذ زمــن طویل أغلقت حزنها وفرحه.» (المصدر السابق: ۱۰۳-۱۰۲)

ما یرتبط الاســترجاع بعلاقة عکســیّة مع الزمن الروائی، من حیث اتساعه أو ضیقه. بمعنی أنه کلّما ضاق الزمن الروائی شغل "الاسترجاع الخارجی" حیزا أکبر فی الروایة. (سیزا، ۱۹۸۴م: ۴۰)

وقــد یرغب الروائــی، بالعودة إلی الماضــی البعید، وهذا ما نجــده لدی ناديا خوست، حین جعل "منوّرا" تتذکر بهاء، برسالة وصلت إلی منوّر. «حمل رجل أتی من عند بهاء رســالة لمنور تطمئنها. لکن حدیثه کان یناقض الرســالة.» فتحدث عن آخر مارآه.

کما ســجل بهاء فی مفکرته ما تعلق بجیش الإنقاذ أو بالمعارک التی خاضها، فضــلا عمــا کان یحکیه لزوجته کلما عــاد من معرکة. وکتب بهــاء فی مفکرته: «قبل أن نستریح هاجم الیهود بالدبابات والطائرات میرون فی جبهة صفد، ومجد الکروم، لینجزوا احتلال الجلیل کله.» (خوست، ۱۹۹۸م: ۹۹،۹۸) ویقارن المؤلفة بین الماضی والحاضر، لیربط بینهما. ســتتذکر عائشة مع أمیرة فیما بعد بیته فی صفد، یوم نســفه الإنکلیز بالقازانات. وســتتذکران الیوم الذی رأتا فیه الیهود فوق مدرستهما فی القلعة.

الاستشراف

هو حرکة الزمن إلی الأمام متجاوزا الماضی و الحاضر إلی المستقبل، فیعرضه الکاتب کالومضة بتنبؤ أو استشــراف فی سیاق الأحداث، لیعود بعدها الکاتب إلی زمنــه بحاضــره أو ماضیه؛ فهو قفز علی فترة ما من زمــن القصة، و تجاوز النقطة التی وصلها الخطاب لاستشراف مستقبل الأحداث، و التطلع إلی ما سیحصل من مستجدات فی الروایة. (بحراوی، ۱۹۹۰م: ۱۳۲)

ومن هنا فإننا نجد اســتعمال هذه التقنیة فی الروایة الفلسطینیة کثیرا، ومن

الأمثلــة البارزة على ذلک، وهو تفکر بمســتقبله، کما هو الحال لدی "قیس" فی روایة "أعاصیر فی بلاد الشام". فقد استعانت الروائیة ناديا خوست بالاستشراف.

«فأبوقیــس "عــرف فیما بعد" أن الیهود العرب تجسســوا علــی الاجتماعات الدینیة والجماهیریة والمســاجد العربیة، وعلی مشــتریات العرب للسلاح، وقیس سیتفح "بعد عقود" کلمات شکری العسلی فی مجلس المبعوثان العثمانی ویهتف لذلک الرائد الذی کشــف یهود الدونمة مبکرا. وعن معارک صفد «ســیکتب فیما بعد الکاتب "الإســرائیلی" عاموس متسوریف من عین زیتیم، وسیکتب الیهودی الأمریکی لیون أوریس عن حرق القری العربیة کمهمة إلهیة، سیکتب رابین قائد القوات التی احتلت اللد والرملة فی مذکراته عن تهجیر ســکانها، وسیکتب ألفرید لیلنتال بعد عقود من الزمن» کیف حدث التصویت علی تقســیم فلســطین فی الأمم المتحدة... (خوست، ۱۹۹۸م: ۶۴-۵۵-۵۱)

وفی روایة "أعاصیر فی بلاد الشــام" نری مثالا آخر للاستشــراف، یتخذ صفة النبوءة وتجیء بتلک النبوءة فی الروایة، بوســاطة الراوی العالم بکل شــیء، وبعد النکبة ۱۹۴۸م فی بنت جبیل، «کان الشــیخ یدعو فی خطبه خلال الاشتباکات بین الیهود والعرب: اللهم رمّل نســاءهم، اللهم یتّم أطفالهم، اللهم اجعل أموالهم غنیمة للمسلمین!» (المصدر نفسه: ۱۱۱-۱۱۰)

سیسرح قیس فیما بعد فی ذکریاته. «لماذا سیتمنی أن یعرف مصیر من عبر حیاته! لیطمئن علیه؟ أم لیسوق الصور إلی آخرها ویضعها فی مکانها الملائم منه؟ لیرتب ســنوات عمره فی رفوفها ودروجها، ویترکها منظمة مثل خزانة ملابسه؟» (المصدر نفسه: ۱۲۱)

النتیجة

الروایة هذه، تقترب من التأریخ، لا بل تتکئ علیه فی عملیة السرد الروائی، التی أقامتها الروائیة ناديا خوســت. هی قدنجحت فی تصویــر الزمان والمکان الروائیین بلغة جمیلة وطریقة تیار الوعــی وانثیال الأفکار والحوار الداخلی فی معمار روایتها الطویلة هذه. وغالبا تجعل الکاتبة، فی کثیر من الأحیان، یعود إلی ماضیها وتستعمل الاسترجاع ونجد استعمال هذه التقنیة فی الروایة الفلسطینیة کثیرا.

تحصر ناديا خوســت روايتها فی الوقت الذی ســبق احتلال فلســطين بأشهر قليلــة، وما حدث بعــد الاحتلال بوقت قصيــر أيضا. وعلى الرغم مــن أن الزمن الفيزيائــی للرواية واســع جدا يمتّد من فترة احتلال اليهود لفلســطين إلى وقت انهيار الاتحاد السوفييتی فی التسعينيات من هذا القرن.

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ آرمــن، ســيدابراهيم. "تيار الوعی فی التلصــص لصنع الله إبراهيم". فصلية دراســات الأدب المعاصر. خريف ۱۳۸۹ش. العدد۸. صص۹-۱۸.

ـ بحراوی، حسن. ۱۹۹۰م. بنية الشكل الروائی. ط۱. بيروت: المركز الثقافی العربی.

ـ بوتور، ميثال؛ وترفريد أنكونيوس. ۱۹۸۲م. بحوث فی الرواية الجديدة. ط۲. بيروت: دار عويدات.

ـ خمّار،عبدالله. فن الكتابة وتقنيات الوصف. (http://www.khammar)

ـ خوست، ناديا. لاتا. أعاصير فی بلاد الشام. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

ـ صبحی، محيی الدين. لاتا. نظرية الأدب. ط۳. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ـ قاسم، سيزا أحمد. ۱۹۸۴م. بناء الرواية. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ مركــز المعلومات الوطنی الفلســطينی، مجازر العصابات الصهيونية بحق الفلســطينيين قبل واثناء عام ۱۹۴۸: موقع وفا ۲۰۱۱.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی